لَمْ يَمُتْ

تأليف اسماء عساف



لَم يَمُت

تأليف: أسماء عساف

تصميم الكتاب: فاطمة فتوح

سنة النشر: ٢٠٢٦ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة © ٢٠٢٦

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو ترجمته أو اقتباسه، دون إذن خطي مسبق من المؤلفة.



الإهداء

إلى أبي بلال...

إلى الرجل الذي لم تمنحني الحياة وقتًا كافيًا لأعرفه كما تمنّيت، ولم يمنحني الغياب فرصةً لأودّعه كما يليق بحبّي له.

إليك أكتب، لا لأستعيد ما مضى، بل لأحفظ ما بقي منك في قلبي، وفي ملامح إخوتي، وفي حكايات أحبّتك.

إلى أبي الذي رحل عن عيني، ولم يرحل عن روحي...

هذا الكتاب لك، وإن لم تقرأه يومًا.

المقدمة

لم يمت...

لم أكتب هذا الكتاب لأنني أجيد الكتابة، بل لأنّ في قلبي حكايةً أكبر من أن تبقى صامتة.

حكاية رجلٍ اسمه بلال، كان أبي، ثم أصبح ذكرى أبحث عنها في الصور، وأثرًا أتتبّعه في وجوه أحبّته، واسمًا كلّما نُطق شعرت أنّ شيئًا من روحي يصغي إليه.

في العشرين من شباط عام 2021، تغيّر شيءٌ في حياتنا إلى الأبد. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد كلمة «أبي» مجرّد كلمة؛ أصبحت عالمًا من الذكريات والأسئلة والأمنيات التي لم تجد طريقها إليه.

لم تكن صيدنايا بالنسبة إليّ مجرّد اسم مكان، بل جزءًا من حكاية أبي، ومن وجعٍ لا تستطيع الكلمات أن تحيط به. ولم يكن غيابه نهاية حكايته، بل بداية أسئلةٍ كثيرة: من كان أبي قبل أن أعرفه؟ كيف عاش؟ ماذا ترك في قلوب الذين عرفوه؟ وكم من التفاصيل ما زالت تنتظر من يرويها؟

لهذا قرّرت أن أكتب.

لن أقدّم في هذه الصفحات رجلًا بلا أخطاء، ولا سأدّعي أنّني أعرف كلّ ما مرّ به. سأكتب ما أعرفه، وما عشته، وما وصلني من حكايات، وسأترك لكلّ ذكرى حقّها في أن تُروى كما هي.

ستجدون هنا أبًا، وابنةً، وإخوةً، وعائلةً تحاول أن تحفظ حكايتها من النسيان. ستجدون وجوهًا غابت، وأشخاصًا بقوا، وأسماءً ما زالت تعيش بيننا.

وربما، حين تصلون إلى الصفحة الأخيرة، ستفهمون لماذا اخترتُ لهذا الكتاب اسم «لم يمت».

فليس كلّ من غاب انتهى، وليس كلّ من رحل غادر أثره.

بعض الناس لا يبقون في الحياة بأجسادهم، بل بما يتركونه في قلوب الآخرين.

لكنّ شيئًا فيه لم يعد كما كان.

هناك أشياء لا تموت حين نفقدها، ولا ترحل حين تبتعد عنّا، بل تبقى عالقةً في مكانٍ ما داخل أرواحنا؛ تعيش بصمت، وتختبئ بين تفاصيل الأيام، ثم تظهر فجأةً في لحظةٍ لم نكن مستعدّين فيها لتذكّرها.

هناك أشخاص نُغلق الأبواب بعد رحيلهم، ونقنع أنفسنا أنّ الحكاية انتهت، وأنّ الأيام ستجعل كلّ شيءٍ عاديًّا من جديد.

نضحك، نتحدّث، نخرج، ونبدو أمام الجميع بخير، لكنّنا وحدنا نعرف أنّ في داخلنا حكايةً لم تُكتب نهايتها بعد.

وحدنا نعرف كم مرّةً اشتقنا ولم نتكلّم، وكم مرّةً فتحنا أبواب الذكريات ثم أغلقناها سريعًا، كأنّنا نخشى أن يرانا أحدٌ ونحن ما زلنا هناك، في المكان نفسه الذي تركنا فيه آخر قطعةٍ من قلوبنا.

بعضُ الغياب لا يأخذ منّا الأشخاص وحدهم، بل يأخذ معه نسخةً منّا لن تعود أبدًا.

والغريب أنّ بعض الأشياء لا تحتاج إلى أن تحدث من جديد كي تؤلمنا؛ يكفي أن نتذكّرها.

اسمٌ عابر، أغنية قديمة، طريقٌ مررنا به يومًا، أو حتى لحظة صمتٍ طويلة... وفجأةً، نعود إلى كلّ شيء، كأنّ الزمن لم يمضِ، وكأنّنا لم نحاول طوال هذه المدّة أن نتجاوز.

اسمٌ عابر، أغنية قديمة، طريقٌ مررنا به يومًا، أو حتى لحظة صمتٍ طويلة... وفجأة، نعود إلى كلّ شيء، كأنّ الزمن لم يمضِ، وكأنّنا لم نحاول طوال هذه المدّة أن نتجاوز.

وربّما لهذا السبب اخترتُ أن أسمّي حكايتي: «لم يمت».

لأنّني اكتشفت أنّ النهاية ليست دائمًا موتًا، وأنّ الغياب لا يعني النسيان، وأنّ بعض الحكايات، حتى حين تتوقّف، تترك فينا شيئًا يظلّ حيًّا طويلًا.

وهذه الصفحات ليست عن شخصٍ واحد، ولا عن حكاية حبٍّ واحدة، بل عن كلّ ما ظننّاه انتهى، ثم اكتشفنا أنّه ما زال يعيش فينا...

عن الأشياء التي لم تمت، رغم أنّنا دفنّاها في صمت.

لم يخبرنا أحدٌ أنّ النسيان ليس قرارًا نتّخذه، وأنّ القلب لا يفهم دائمًا ما يفهمه العقل.

قد نعرف أنّ شيئًا ما انتهى، وقد نعترف لأنفسنا أنّ العودة لم تعد ممكنة، ومع ذلك، نجدنا نلتفت كلّما سمعنا صوتًا يشبه صوتًا أحببناه، ونبحث دون قصدٍ عن ملامحٍ ألفناها بين وجوه الغرباء.

نحن لا نشتاق دائمًا لأنّنا نريد العودة، أحيانًا نشتاق لأنّنا كنّا أشخاصًا مختلفين حين كنّا هناك.

نشتاق إلى ضحكتنا القديمة، إلى عفويّتنا، إلى قلوبنا التي كانت تصدّق الكلام دون أن تسأل عن النهايات.

نشتاق إلى أنفسنا قبل أن نتعلّم الحذر.

وكم من مرّةٍ قلنا: «لم يعد الأمر يهمّني»، فقط لأنّنا تعبنا من شرح ما نشعر به. وكم من مرّةٍ ابتسمنا، لا لأنّنا سعداء، بل لأنّنا لم نعد نملك طاقةً كافيةً لنُظهر حزننا.

هناك كلامٌ كثيرٌ لا نقوله، ليس لأنّه قليل الأهميّة، بل لأنّ أهميّته أكبر من أن نعرف كيف نشرحه.

كيف يمكن للإنسان أن يشرح أنّه تجاوز شيئًا، لكنّه ما زال يتألّم حين يتذكّره؟ كيف يقول إنّه لم يعد ينتظر، بينما يلتفت قلبه كلّما سمع صوت الهاتف؟ وكيف يعترف بأنّه سامح، لكنّه لم يستطع أن يعود الشخص نفسه؟

ربّما نحتاج فقط إلى مكانٍ آمن نضع فيه مشاعرنا دون أن يطلب منّا أحدٌ أن نتجاوزها بسرعة، أو أن نبدو أقوى ممّا نحن عليه.

ولهذا، سأكتب.

سأكتب عن الأشياء التي لم أستطع قولها، وعن المشاعر التي أخفيتها خلف الصمت، وعن النهايات التي تركت أسئلةً أكثر ممّا تركت إجابات.

سأكتب، لا لأعيد ما مضى، بل لأفهم ما تركه في داخلي.

فبعض الحكايات لا نكتبها لأنّنا لم ننتهِ منها، بل لأنّنا نريد أخيرًا أن نفهم كيف غيّرتنا.

لم يكن الأمر مجرّد ذكرياتٍ نعود إليها بين الحين والآخر، بل كان شيئًا أعمق من ذلك؛ كان أثرًا خفيًّا يرافقنا حتى في أكثر أيامنا عاديّة.

•••

فبعض اللحظات تمرّ وتنتهي، لكنّها تترك في داخلنا شيئًا لا نعرف كيف نسمّيه. لا نستطيع أن نعيدها، ولا نستطيع أن نتخلّص من أثرها، فنمضي وكأنّ شيئًا لم يحدث، بينما هناك جزءٌ منّا ما زال يعيش فيها.

•••

ومع مرور الوقت، نكتشف أنّنا لم نكن نتغيّر من فراغ. كلّ صمتٍ تعلّمناه، وكلّ كلمةٍ ابتلعناها، وكلّ خيبةٍ أخفيناها خلف ابتسامة، كانت تترك أثرًا صغيرًا في أرواحنا.

حتى أصبحنا أحيانًا لا نعرف إن كنّا قد تجاوزنا فعلًا، أم أنّنا فقط اعتدنا وجود ذلك الشيء في داخلنا. اعتدنا أن نتذكّر دون أن نتكلّم، وأن نشعر دون أن نشرح، وأن نكمل أيامنا وفي داخلنا أسئلةٌ لم تجد طريقها إلى الإجابة.

•••

ولعلّ أكثر ما يؤلم في الحكايات التي لا تنتهي، أنّها لا تطلب منّا العودة، ولا تمنحنا القدرة على النسيان؛ تتركنا في منتصف الطريق، نحمل ما كان، ونحاول أن نفهم ما أصبحنا عليه.

•••

وهكذا نمضي... لا كما كنّا، ولا كما تمنّينا أن نكون، بل كما صنعت منّا الأشياء التي مرّت بنا، وتركت فينا أثرًا لم يستطع الزمن محوه.

هناك لحظاتٌ لا نعرف قيمتها حين نعيشها، نظنّها عابرة، تشبه غيرها من الأيام، ولا ندرك أنّها كانت تحمل في تفاصيلها شيئًا سنبحث عنه طويلًا فيما بعد.

•••

ربّما لأنّنا لا ننتبه إلى النهايات وهي تقترب، ولا نعرف أنّ بعض الوجوه التي نراها اليوم قد تصبح غدًا مجرّد ذكرى، وأنّ بعض الأحاديث التي نؤجّلها لن تجد فرصةً أخرى لتُقال.

•••

نعيش وكأنّ الوقت واسع، وكأنّ كلّ شيءٍ يمكن تأجيله، وكأنّ الذين نحبّهم سيبقون دائمًا في الأماكن التي اعتدنا وجودهم فيها.

لكنّ الحياة لا تخبرنا متى تتغيّر، ولا تمنحنا دائمًا فرصةً لنستعدّ لما سيحدث.

وكم من لحظةٍ تمنّينا لو أنّنا أطلناها قليلًا، وكم من حديثٍ تمنّينا لو أنّنا لم ننهِه بتلك السرعة، وكم من تفاصيل صغيرةٍ مرّت أمام أعيننا دون أن نعرف أنّها ستصبح يومًا أغلى ما نملك.

•••

لهذا، صرتُ أؤمن أنّ الأشياء العظيمة لا تُقاس دائمًا بطول بقائها، بل بالأثر الذي تتركه بعد رحيلها.

فقد يمرّ في حياتنا شيءٌ لا يستغرق سوى وقتٍ قصير، ثم يبقى فينا عمرًا كاملًا.

•••

وربّما لهذا نعود إلى الماضي كثيرًا؛ ليس لأنّنا نريد أن نعيش فيه، بل لأنّ هناك تفاصيل لم نفهمها إلا بعد أن أصبحت بعيدة.

ومع كلّ ما يمضي، نتعلّم أنّ الغياب ليس شكلًا واحدًا، وأنّ الرحيل لا يحدث دائمًا بخطواتٍ مسموعة أو أبوابٍ تُغلق خلف أصحابها.

•••

أحيانًا يغيب أحدهم وهو ما زال قريبًا، تتغيّر المسافات بين الكلمات، وتصبح الأحاديث أقصر، وتفقد التفاصيل الصغيرة معناها القديم. لا يحدث شيءٌ واضح نستطيع أن نُشير إليه، لكنّنا نشعر أنّ شيئًا ما لم يعد في مكانه.

•••

نحاول أن نفهم، نبحث عن سببٍ لهذا التغيّر، ونراجع كلماتنا ومواقفنا، كأنّنا نبحث في الأيام الماضية عن لحظةٍ كانت كفيلةً بأن تغيّر كلّ شيء.

لكنّنا لا نجد دائمًا إجابة. فبعض الأسئلة تبقى معلّقة، لا لأنّها صعبة، بل لأنّ أصحاب الإجابات لم يعودوا كما كانوا، أو لأنّ الوقت مضى قبل أن نتمكّن من السؤال.

•••

وهنا ندرك أنّ أصعب ما يتركه الغياب ليس الفراغ وحده، بل ذلك الاعتياد الذي يبقى فينا؛ أن نلتفت إلى مكانٍ اعتدنا أن نجد فيه أحدًا، وأن نتذكّر تفصيلًا صغيرًا لم يعد له وجودٌ في أيامنا.

•••

ومع ذلك، تستمرّ الحياة. تشرق الشمس في موعدها، تمضي الأيام، وتتغيّر الفصول، بينما يحمل القلب ذاكرته بصمت، كأنّه يخشى أن ينسى شيئًا كان يومًا جزءًا منه.

•••

فليس كلّ غائبٍ انتهى أثره، وليس كلّ حاضرٍ بقي كما كان... وبين الحضور والغياب، حكاياتٌ لا يعرف أحدٌ كيف بدأت، ولا متى تغيّر كلّ شيء.

ثمة أشياء لا نعرف كيف نشرح بقاءها فينا، نعتقد أنّها مجرّد ذكريات، ثم نكتشف أنّها أصبحت جزءًا من الطريقة التي نفكّر بها، ومن نظرتنا إلى الحياة، وحتى من أبسط تصرّفاتنا.

•••

فالتجارب لا تمرّ بنا دون أن تترك شيئًا خلفها؛ بعضها يعلّمنا الصبر، وبعضها يجعلنا أكثر حذرًا، وبعضها يغيّر فينا أمورًا لم نكن نتخيّل أنّها قابلة للتغيّر.

•••

وقد يأتي يومٌ نكتشف فيه أنّنا لم نعد نبحث عن الأشخاص أو الأماكن كما كنّا نفعل، بل أصبحنا نبحث عن الشعور الذي كان يرافقنا معهم. عن الطمأنينة التي عرفناها يومًا، وعن نسخةٍ من أنفسنا لم تكن تعرف معنى الخوف من الفقد.

•••

وليس غريبًا أن نشتاق إلى شعورٍ أكثر من اشتياقنا إلى حكاية؛ فبعض ما نفتقده لا يمكن رؤيته أو لمسه، لكنّنا نعرف تمامًا متى غاب، وكم ترك غيابه من فراغ.

•••

ومع ذلك، لا ينبغي أن نظنّ أنّ كلّ أثرٍ في داخلنا هو حزن. فهناك ذكرياتٌ تمنحنا الدفء، وأخرى تعلّمنا الامتنان، وأشياء مضت لكنّها تركت في أرواحنا نورًا لا ينطفئ.

•••

لعلّ النضج الحقيقي ليس أن نتخلّص من ماضينا، بل أن نفهمه دون أن نبقى أسرى له، وأن نعترف بأنّ ما حدث كان جزءًا من حكايتنا، لا الحكاية كلّها.

فما زال في العمر صفحاتٌ لم تُكتب، وما زال في القلب متّسعٌ لأشياء لم نعرفها بعد.

ومهما حاولنا أن نفهم ما تركته الأيام فينا، سنكتشف أنّ بعض الأسئلة لا تظهر إلا حين نهدأ، حين ينتهي ضجيج النهار، ونبقى وحدنا أمام أفكارٍ لم تجد وقتًا لتُقال.

•••

في تلك اللحظات، لا نكون بحاجةٍ إلى حديثٍ طويل، ولا إلى إجاباتٍ جاهزة؛ نحتاج فقط أن نسمح لأنفسنا بأن نشعر، دون أن نحاكم كلّ ذكرى، أو نلوم أنفسنا على كلّ لحظة ضعف.

•••

فقد أمضينا وقتًا طويلًا نحاول أن نبدو بخير، حتى نسينا أنّ التعب لا يجعلنا أقلّ قوّة، وأنّ الاعتراف بما يؤلمنا ليس هزيمة، بل بداية فهمٍ أصدق لما نمرّ به.

•••

كم من مرّةٍ أخفينا سؤالًا خلف ابتسامة، وكم من مرّةٍ قلنا إنّنا اعتدنا، بينما كان كلّ شيءٍ في داخلنا يخبرنا أنّ الاعتياد لا يعني أنّ الأثر اختفى.

•••

لكنّنا نتعلّم، ببطء، ألّا نطلب من قلوبنا أن تنسى في الوقت الذي نريده نحن، وألّا نقيس تعافينا بعدد الأيام التي مرّت، فلكلّ إنسان طريقته في فهم ما حدث، ولكلّ ذكرى وقتها الخاص كي تهدأ.

•••

وربّما يأتي يومٌ ننظر فيه إلى كلّ ما مضى، فلا نشعر بالرغبة في العودة ولا بالحاجة إلى الهروب؛ فقط نفهم أنّنا كنّا نعبر مرحلةً من حياتنا، وأنّ العبور نفسه كان يعلّمنا كيف نكون أكثر وعيًا بأنفسنا.

فليس كلّ ما ترك أثرًا فينا جاء ليبقى كما هو، بعض الأشياء تتغيّر مكانتها مع الوقت، لكنّها لا تُمحى من الحكاية.

ومع مرور الأيام، نفهم أنّ الذاكرة ليست مجرّد مكانٍ نعود إليه حين نشتاق، بل هي جزءٌ منّا، تحمل تفاصيل لم نعد نعيشها، لكنها ما زالت تسكن أعماقنا.

•••

هناك تفاصيل صغيرة لا يلتفت إليها أحد، لكنّها تبقى عالقة فينا لسنوات؛ كلمة قيلت في وقتٍ لم نكن نتوقّع فيه شيئًا، نظرةٌ فهمنا منها الكثير، أو لحظةٌ عاديّة لم نعرف أنّها ستصبح يومًا ذكرى.

•••

والأغرب أنّنا قد ننسى أحداثًا كبيرة، بينما تحتفظ ذاكرتنا بأبسط الأشياء، كأنّ القلب يختار وحده ما يستحقّ البقاء، دون أن يستشيرنا أو يخبرنا عن السبب.

وربّما لهذا لا نستطيع ترتيب ذكرياتنا كما نرتّب صفحات كتاب؛ فبعضها يعود قبل غيره، وبعضها يختبئ طويلًا ثم يظهر فجأة، فيعيد إلينا شعورًا ظننّا أنّنا تجاوزناه.

•••

لكنّ الذاكرة لا تعيد إلينا الماضي كاملًا، بل تمنحنا أجزاءً منه، ناقصةً أحيانًا، ومختلفةً عمّا كانت عليه. فنحن لا نتذكّر ما حدث فقط، بل نتذكّره كما شعرنا به، وكما فهمناه في ذلك الوقت.

•••

وهكذا، قد لا تكون الذكرى صورةً لما مضى بقدر ما تكون مرآةً لما أصبحنا عليه؛ نراها بعينٍ مختلفة، ونفهم منها أشياء لم نكن قادرين على فهمها من قبل. فربّما لا يتغيّر الماضي، لكنّ نظرتنا إليه تتغيّر، ومع كلّ فهمٍ جديد، نكتشف صفحةً أخرى من أنفسنا.

ولعلّ أكثر ما يحيّر الإنسان أنّه لا يعرف دائمًا ما الذي يفتقده على وجه التحديد؛ أهو شخصٌ غاب، أم زمنٌ مضى، أم شعورٌ لم يعد يجد طريقه إليه؟

•••

نحاول أحيانًا أن نسمّي ما بداخلنا، فنجد الكلمات أصغر من أن تحتويه. نقول إنّه حنين، أو حزن، أو اشتياق، لكنّ الحقيقة قد تكون أوسع من كلّ هذه الكلمات.

•••

فثمّة فراغات لا يملؤها حضورٌ جديد، لأنّها لم تكن يومًا مجرّد أماكن فارغة، بل كانت تحمل تفاصيل اعتدناها، وأحاديث صارت جزءًا من أيامنا، وأشياء لم ندرك قيمتها إلا حين تغيّرت.

•••

ومع ذلك، لا يعني هذا أنّ الحياة تتوقّف عند ما فقدناه؛ إنّها تستمرّ، وتمنحنا وجوهًا جديدة، وأيامًا مختلفة، وفرصًا لم نكن نعرف أنّنا بحاجةٍ إليها.

لكنّنا نتعلّم ألّا نقارن كلّ جديدٍ بما مضى، وألّا نطلب من اللحظات القادمة أن تشبه لحظاتٍ لم تعد موجودة. فلكلّ زمنٍ حكايته، ولكلّ مرحلةٍ جمالها الذي قد لا نراه إلا بعد أن نعبرها.

•••

وربّما تكمن الحكمة في أن نترك للماضي مكانه، دون أن نسمح له أن يأخذ مكان المستقبل؛ أن نحفظ ما كان بامتنان، ونمضي نحو ما لم يأتِ بعد بقلبٍ أكثر فهمًا وهدوءًا. فليست كلّ الأبواب التي أُغلقت نهاية الطريق، أحيانًا تكون مجرّد بدايةٍ لطريقٍ لم نكن نعرف أنّه ينتظرنا.

ومهما ابتعدت بنا الأيام، تبقى هناك أشياء لا نعرف كيف نضعها في الماضي؛ كأنّها لم تنتهِ تمامًا، أو كأنّ جزءًا منها ما زال ينتظر أن نفهمه.

•••

نظنّ أحيانًا أنّ مرور الوقت كفيلٌ بأن يجعل كلّ شيءٍ أخفّ، لكنّنا نكتشف أنّ الزمن لا يمحو كلّ الآثار، بل يعلّمنا كيف نتعايش معها، وكيف نمنحها مكانًا لا يؤذينا كلّما مررنا به.

•••

فليس النسيان أن تختفي التفاصيل من ذاكرتنا، ولا أن نصبح غرباء عن كلّ ما عشناه؛ بل ربما أن نتذكّر دون أن نضيع في الذكرى، وأن نستعيد الحكاية دون أن نرغب في العودة إلى بدايتها.

•••

هناك فرقٌ كبير بين أن يبقى الشيء في ذاكرتنا، وأن يبقى يتحكّم في حاضرنا. فالأول جزءٌ من إنسانيتنا، أمّا الثاني فقد يجعلنا نعيش أعمارًا كاملةً في لحظةٍ واحدة مضت.

ولعلّنا نحتاج أحيانًا إلى أن نتوقّف عن مقاومة الذكريات، وأن نكفّ عن سؤال أنفسنا لماذا ما زلنا نتذكّر. فبعض الأمور لا تحتاج إلى تفسير، يكفي أن نعترف أنّها كانت مهمّة، وأنّها تركت فينا ما تركته.

•••

وفي النهاية، لا يعود السؤال: كيف ننسى ما حدث؟ بل كيف نواصل الحياة ونحن نحمل كلّ ما حدث دون أن نفقد قدرتنا على رؤية الجمال فيما هو قادم؟

فما زالت الحكاية أطول من ذكرى، وما زالت في داخلنا أشياء كثيرة تستحقّ أن تُروى.

هناك تاريخٌ لا يشبه سائر التواريخ، رقمٌ مرّ على التقويم، لكنّه لم يمرّ من قلبي أبدًا.

20/2/2021

في ذلك اليوم، لم يكن الغياب مجرّد كلمة أقرأها في الكتب، ولم تكن الخسارة شعورًا أسمع عنه في حكايات الآخرين. في ذلك اليوم، عرفتُ أنّ بعض الرحيل يترك في الروح فراغًا لا تشبهه أيّ فراغات أخرى.

كان ذلك تاريخ رحيل أبي، بلال.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد الأيام كما كانت، ولم أعد أنظر إلى الأشياء بالطريقة نفسها. كبرت بعض الأسئلة في داخلي، وبقيت أشياء كثيرة لا أجد لها جوابًا.

لم أكن أعرف حينها أنّ الإنسان قد يواصل حياته، ويضحك، ويتحدّث، ويكبر، بينما يبقى في داخله مكانٌ صغير ينتظر وجهًا لن يعود.

ولم أفهم كيف يمكن لصوتٍ أن يغيب، ومع ذلك يبقى حاضرًا في الذاكرة، وكيف يمكن لملامح أن تصبح بعيدة، لكنها تظلّ أقرب من أشياء كثيرة نراها كلّ يوم.

ربّما لهذا اخترتُ أن أكتب...

لأنّ هناك أشخاصًا لا يكفيهم الحنين، ولا تنصفهم الكلمات، ولا يستطيع الزمن أن يجعل أثرهم عابرًا.

وأبي لم يكن مجرّد ذكرى في حياتي؛ كان جزءًا من الحكاية التي أحاول اليوم أن أكتبها.

لم أكن أعرف أنّ كلمة «أبي» يمكن أن تصبح يومًا أمنية، وأنّ الإنسان قد يكبر وهو يحمل في داخله طفلةً صغيرة ما زالت تنتظر عودة والدها.

كنت أظنّ أنّ الآباء لا يغيبون بهذه الطريقة، وأنّ الحياة مهما قست، ستترك لنا دائمًا فرصةً أخيرة لنقول ما لم نقله، ولنحتفظ بلحظةٍ أخرى مع من نحب.

لكنّ بعض الأقدار تأتي دون استئذان، وتترك خلفها أسئلةً أكبر من أعمارنا.

•••

أبي، هل تعلم كم مرّةً أردتُ أن أخبرك عن أشياء حدثت بعدك؟ عن الأيام التي مرّت، وعن الأشياء التي تغيّرت، وعن تفاصيل صغيرة كنت أتمنى لو كنت حاضرًا فيها.

كم مرّةً تمنّيت أن أرفع رأسي فأجدك، أن أسمع صوتك، أن أروي لك ما في قلبي دون أن أضطرّ إلى شرح معنى غيابك.

•••

يقولون إنّ الغائب تسكنه الذاكرة، لكنّهم لا يعرفون أنّ الذاكرة أحيانًا لا تكفي.
فأنا لا أريد صورةً تجمعني بك فقط، ولا حكايةً يرويها الآخرون عنك؛ أريد لحظةً واحدة أكون فيها ابنتك أمامك، لا ابنتك التي تكتب إليك بعد الغياب.

•••

يا أبي، تركتَ في قلبي حكايةً لا تشبه الحكايات:
غبتَ عن عيني، وما غبتَ عن دعائي،
وبقيتَ في قلبي، وإن طالَ المسير.
أبحثُ عنك في العمرِ بين تفاصيله،
فأراكَ في ذكرى، ويخذلني المصير.

•••

ولعلّ أكثر ما يؤلمني أنّني لا أعرف إلى أين أذهب حين يشتدّ اشتياقي؛ فلا قبرٌ أزوره، ولا مكانٌ أترك عنده وردةً وأخبره كم افتقدته.
كلّ ما أملكه هو الدعاء، وذاكرةٌ أحاول أن أحفظ فيها ملامحك، وكلماتٌ أكتبها لعلّها تحمل إليك شيئًا من حنيني.

•••

فكيف يشرح المرء للعالم أنّه فقد أباه، ثم فقد حتى المكان الذي يستطيع أن يقف فيه ليقول: هنا يرقد أبي؟

لم تكن حكاية أبي تشبه الحكايات التي تنتهي عند كلمة رحيل؛ فقد سبق الغيابَ وجعٌ لا أعرف كيف أصفه، وأيامٌ لم أكن أملك فيها من الأمر شيئًا سوى الانتظار.

كان أبي قد دخل مكانًا لم أكن أعرف أنّ اسمه سيبقى محفورًا في ذاكرتي إلى الأبد...

صيدنايا.

اسمٌ واحد، لكنه يحمل في داخلي أسئلةً لا تنتهي. كيف يمكن لمكانٍ أن يصبح جزءًا من ذاكرة عائلة بأكملها؟ وكيف يمكن لبابٍ أن يُغلق، فتظلّ خلفه قلوبٌ كثيرة تنتظر؟

•••

لم أكن أملك آنذاك إجاباتٍ عن كلّ ما حدث، ولم تكن الكلمات قادرةً على شرح ما مرّ به أبي. كلّ ما أعرفه أنّه عاش وجعًا أكبر مما ينبغي لإنسان، وأنّ غيابه ترك فينا حكايةً لم نجد لها نهاية.

•••

أبي...

كم أتمنى لو أنّني أستطيع أن أسألك عن الأيام التي لم أعرف عنها شيئًا، وعن الأشياء التي لم تصلنا أخبارها، وعن كلّ ما بقي حبيسًا خلف صمت السنين.

لكنّ الأسئلة، مهما كثرت، لا تجد طريقها إليك.

•••

يا أبي، لو كان للحنين بابٌ
لطرقتُه حتى أراك،
ولو كان للصوت طريقٌ إليك
لأرسلتُ اسمي مع الريح...
لعلّك تسمع أنّ ابنتك
ما زالت تذكرك في كلّ دعاء.

•••

وهكذا بقيت حكايتك في داخلي، لا أعرف من أين أبدأ روايتها، ولا كيف أشرح للآخرين أنّ بعض الغياب لا يُقاس بالسنوات، بل بما يتركه في قلوب الذين أحبّوا صاحبه.

ولم أكن أعلم أنّ أصعب ما في الحكاية لم يكن الرحيل وحده... بل ما بقي بعده.

كان عليّ أن أتعلّم الحياة من جديد، لكنّ أحدًا لم يخبرني كيف يفعل الإنسان ذلك حين يكون جزءٌ من قلبه قد غاب.

كيف أعتاد الأيام التي لا تحمل صوته؟ وكيف أمرّ بالمناسبات دون أن أتساءل كيف كان سيبدو وجهه لو كان بيننا؟ وكيف أفرح بشيءٍ جميل، دون أن أتمنّى لو أنّه يراه؟

لم يكن غياب أبي حدثًا مرّ وانتهى، بل كان بدايةً لأسئلة رافقتني في تفاصيل كثيرة.

•••

كنت أسمع الآخرين يتحدّثون عن آبائهم بعفوية، عن مكالمةٍ عابرة، أو نصيحةٍ سمعوها، أو عتابٍ بسيط انتهى بكلمة رضا.

فأصمت...

ليس لأنّني لا أملك ما أقوله، بل لأنّ بعض الحكايات يصعب شرحها لمن لم يعشها.

يا أبي، كم من حديثٍ خبّأته لك،
وكم من فرحةٍ تمنّيت أن تراها،
كبرتُ قليلًا بعد غيابك،
لكنّ في داخلي طفلةً
ما زالت تناديك كما كنت تفعل قديمًا.

•••

وأتعجّب من قلبي؛ كيف استطاع أن يحتفظ بكلّ هذه التفاصيل؟
كيف لم ينسَ صوتًا، ولا ملامح، ولا شعور الأمان الذي كان يعرفه؟
ربّما لأنّ بعض الأشخاص لا يكونون مجرّد جزءٍ من حياتنا، بل
يصبحون جزءًا من تعريفنا لأنفسنا.

•••

لم أكن أبحث عن معجزة، كنت أتمنّى فقط أن تكون الحكاية مختلفة،
أن يكون لأبي مكانٌ أستطيع الوصول إليه، وأن أملك عنوانًا أذهب إليه
كلّما اشتقت.
لكنّ حكايتي كانت تحمل وجعًا آخر...
أن أفقد أبي، ثم أقف أمام العالم عاجزةً حتى عن زيارة قبره.

•••

ومنذ ذلك الحين، صار الدعاء هو الطريق الذي أعرفه، وصارت الكتابة
المكان الذي أضع فيه ما لا أستطيع قوله.
فيا أبي، إن لم أستطع الوصول إليك، سيبقى اسمك حاضرًا في كلماتي،
وستبقى ابنتك تكتب عنك... حتى لا يصبح غيابك نسيانًا.

كبرتُ، لكنّني لم أكبر عن حاجتي إليك يا أبي.

تغيّرت أشياء كثيرة منذ رحيلك؛ كبرت الوجوه الصغيرة، تبدّلت الأيام، وجاءت مناسباتٌ لم تكن فيها، وأخرى تمنّيت لو أنّك كنت أوّل الحاضرين فيها.

ومع كلّ مرحلةٍ جديدة، كنت أكتشف أنّ غياب الأب لا يُقاس بالعمر؛ فمهما كبرنا، يبقى في داخلنا مكانٌ يتمنّى لو أنّه يستطيع العودة إلى حضن الأمان الأول.

•••

أحيانًا أتخيّلك تسمع أخباري، تعرف ما أحببت، وما تعبت منه، وما حقّقته بعدك. أتخيّل أنّني أروي لك تفاصيل يومي، وأنّك تقاطعني بسؤالٍ صغير، أو تبتسم عند تفصيلٍ لا يعني لأحدٍ سواك شيئًا.

ثم أعود إلى الحقيقة...

وأتذكّر أنّ كلّ ما بيني وبينك الآن هو الدعاء والذكرى.

أبي، لو كان الاشتياق يُكتب رسالةً،
لملأتُ بها كلّ أوراق العالم.
ولو كان الحنين يُسمع صوتًا،
لسمعتَ اسمي يناديك
في كلّ ليلةٍ يطول فيها الغياب.

•••

لم أعد أسأل الأيام لماذا أخذتك منّي، فقد تعلّمت أنّ بعض الأسئلة لا تملك إجابةً تُريح القلب.
لكنّني ما زلت أسأل نفسي: كيف يمكن لإنسانٍ أن يغيب، وتبقى محبّته حاضرةً في كلّ هذا العدد من التفاصيل؟

•••

ربّما لأنّ الأب لا يُختصر بسنواتٍ عاشها معنا؛ فهناك آباءٌ يتركون في أبنائهم من الحبّ ما يكفي ليبقى حاضرًا حتى بعد أن تغيب أصواتهم.
وأنت يا أبي، لم تكن يومًا مجرّد فصلٍ من حياتي...
كنتَ جزءًا من الحكاية كلّها.

لم يكن غيابك يا أبي مجرّد شخصٍ لم يعد إلى البيت، بل كان غيابًا غيّر معنى البيت نفسه.

منذ رحيلك، صار لكلّ شيءٍ وجهان؛ وجهٌ أراه أمام الناس، ووجهٌ آخر لا يعرفه إلا قلبي. أضحك، وأشاركهم أحاديثهم، وأمضي في أيّامي كأنّ الحياة لم تتغيّر، لكنّني في داخلي ما زلت تلك الطفلة التي تبحث عن أبيها بين تفاصيل يومها.

أحيانًا أتساءل: هل كنتَ ستلاحظ كم كبرت؟ هل كنتَ ستفرح بما حقّقته؟ وهل كنتَ ستعرف أنّني، رغم كلّ ما مررتُ به، ما زلتُ أحتاج إلى كلمةٍ واحدةٍ منك؟ أشياء كثيرة حدثت بعدك، وأشياء تمنّيت لو أنّك كنت حاضرًا فيها. لم يكن ينقصني الكثير، كان ينقصني أن أرفع رأسي فأراك، وأن أقول لك: «أبي، لقد حدث هذا اليوم شيءٌ جميل».

يا أبي، ما زلتُ أترك لك مكانًا في كلّ فرحة، وأحمل اسمك في كلّ دعاء، وأخبّئ لك من الحنين ما لا تسعه الكلمات.

لم يكن أصعب ما في غيابك أنّني فقدتك فقط، بل أنّ الحياة استمرّت بعدك، وكأنّها لم تنتبه إلى أنّ جزءًا من قلبي لم يستطع أن يمضي معها.

هناك لحظاتٌ في العمر لا تشبه غيرها، لحظاتٌ نتمنّى فيها وجود شخصٍ واحد، لا لأنّه يستطيع تغيير ما حدث، بل لأنّ حضوره وحده كان سيجعل كلّ شيءٍ أجمل.

كنتُ أظنّ أنّني سأكبر وأخبرك عن أحلامي، عن الأشياء التي أخاف منها، وعن الطرق التي سلكتها وحدي. كنتُ أظنّ أنّ هناك وقتًا طويلًا ينتظرنا، وأنّني سأجدك في نهاية كلّ مرحلة، كما يجد الطفل أمانه حين يعود إلى أبيه.

لكنّ بعض الأمنيات لا تصل إلى أصحابها، وبعض الأحاديث تبقى حبيسة الصدر، لا لأنّنا لا نريد قولها، بل لأنّ الشخص الذي خُصّصت له لم يعد هنا.

وأكثر ما يؤلمني أنّني لا أستطيع أن أقول لك: انظر يا أبي، لقد كبرت... ولا أن أرى في عينيك تلك الفرحة التي كنتُ أتخيّلها كلّما حقّقتُ شيئًا تمنّيته.

يا أبي، كبرتُ على مهلٍ،

لكنّ قلبي ظلّ ينتظر

أن تخبره أنّك فخورٌ به.

ولعلّ هذا ما يفعله الفقد؛ لا

يأخذ منّا الأشخاص وحدهم، بل

يأخذ معه لحظاتٍ كنّا نظنّ أنّنا

سنعيشها يومًا، ويتركنا نرسمها في

خيالنا، كما تمنّينا لو أنّها حدثت.

لا أعرف كيف يشرح الإنسان اشتياقه لشخصٍ لا يعرف أين يزوره.

حين يشتاق الناس إلى أحبّتهم الراحلين، يعرفون إلى أين يذهبون؛ يحملون بعض الزهور، يقفون عند قبورهم، يقرؤون لهم الفاتحة، ثم يعودون إلى بيوتهم وقد تركوا شيئًا من الحنين هناك.

أمّا أنا، فلا أعرف إلى أين أذهب حين يشتدّ بي الشوق إليك يا أبي.

ليس لي قبرٌ أقف عنده، ولا شاهدٌ أضع يدي عليه، ولا مكانٌ أستطيع أن أقول فيه: هنا يرقد أبي.

كلّ ما أملكه هو الدعاء، وصورةٌ في الذاكرة، واسمٌ كلّما مرّ على لساني شعرتُ أنّ المسافة بيني وبينك كبرت أكثر.

كم تمنّيت لو كان لي مكانٌ أزوره، لا لأغيّر شيئًا من الحقيقة، بل لأشعر أنّني اقتربت منك قليلًا، وأنّ المسافة التي فرضها الغياب قد صارت أقلّ قسوة.

يا أبي، أين أذهب بكلّ هذا الحنين؟

أأتركه في دعائي؟

أم أحمله معي إلى كلّ مكان؟

أم أكتبه على هذه الصفحات، لعلّ الكلمات تمنح اشتياقي مكانًا يستريح فيه؟

ربّما لهذا أكتب عنك؛ لأنّني لا أملك طريقًا يقودني إليك، فصنعتُ من الكلمات طريقًا أحاول أن أصل به إلى ذكراك.

تعلّمتُ بعد رحيلك يا أبي أنّ الحبّ لا يتوقّف عند حدود الغياب، وأنّ هناك أشياء لا تحتاج إلى لقاءٍ كي تبقى حيّة.

لم أعد أستطيع أن أطمئنّ عليك بسؤال، ولا أن أسمع صوتك فأعرف أنّك بخير، لكنّني وجدتُ في الدعاء لغةً أخرى أتحدّث بها إليك. كلّما ضاق صدري، رفعتُ يدي إلى السماء، وذكرتُ اسمك، وكأنّ قلبي يعرف أنّ ما يعجز عن الوصول إليه بيديه، يستطيع أن يطلبه من الله.

أدعوه أن يرحمك رحمةً واسعة، وأن يجعل ما مررتَ به رفعةً لك، وأن يعوّضك عن كلّ وجعٍ بالسكينة والنعيم، وأن يجمعني بك في جنّته يومًا، في لقاءٍ لا يعقبه فراق.

لا أعرف إن كان الدعاء يخفّف المسافة، لكنّني أعرف أنّه يمنح قلبي شيئًا من الطمأنينة؛ فأنا لا أملك أن أغيّر ما حدث، لكنّني أملك أن أظلّ أذكرك بالخير، وأن أجعل اسمك حاضرًا في صلاتي.

يا أبي، كلّما عجزتُ عن الوصول إليك، رفعتُ يدي إلى السماء، وتركتُ عند الله أمانةً اسمها أنت.

فما زال لي في كلّ صلاةٍ موعدٌ مع ذكراك، وما زال اسمك من أحبّ الأسماء إلى قلبي، حتى وإن لم أعد أستطيع مناداتك بصوتٍ تسمعه.

لكنّ الحكاية لم تكن تنتهي عند صيدنايا...

كنتُ أظنّ أنّ أصعب ما يمكن أن يحدث للإنسان هو أن يفقد شخصًا يحبّه، إلى أن اكتشفتُ أنّ هناك وجعًا آخر؛ أن تبقى أسئلة رحيله معلّقةً في قلبك، وأن تكبر وأنت لا تعرف من الحكاية إلا نهايتها.

لم يخبرني أحدٌ كيف أتعامل مع كلّ هذا النقص، كيف أعيش وفي داخلي صفحاتٌ لا أعرف ما كُتب فيها، وكيف أتقبّل أنّ أبي الذي كان يومًا جزءًا من تفاصيل حياتي، أصبح حكايةً أحاول جمعها من الذكريات والدعوات وما وصلني عنه.

ومع مرور السنوات، بدأت أفهم أنّني لم أكن أبحث عن أبي وحده، بل كنت أبحث عن الحقيقة التي غابت معه، عن الأيام التي لم أعرفها، وعن الطفلة التي كبرت وهي تحمل أسئلةً أكبر من عمرها.

كان لديّ سؤالٌ واحدٌ يتكرّر كلّما ظننتُ أنّني اقتربت من الإجابة:

ماذا بقي من حكاية أبي ولم أعرفه بعد؟

لم أكن أعلم أنّ الكتابة ستأخذني يومًا إلى أماكن لم أجرؤ على الاقتراب منها، وأنّني سأكتشف بين السطور مشاعرَ ظننتُ أنّني دفنتها منذ زمن.

لكنّني قرّرت أن أتابع...

فأنا لا أكتب لأحكي كيف فقدتُ أبي فقط، بل لأحكي كيف بقيتُ ابنته، رغم كلّ ما حاول الغياب أن يأخذه منّي.

وكانت هناك حكايةٌ أخرى تنتظر أن تُروى...

أريد أن أعرفك كما كنت، بعيدًا عن جدران السجن، وبعيدًا عن الوجع الذي لحق بك. أريد أن أتذكّرك أبًا، لا أن تختصر ذاكرتي بكلمة معتقل، أو باسم مكانٍ صار جزءًا من قصتي دون أن أختاره.

فأنت أكبر من المكان الذي احتجزك، وأكبر من الألم الذي مررت به، وأكبر من النهاية التي لم تمنحني حتى فرصة وداعك.

وربّما لهذا أعود إلى ذكرياتك كلّما كتبت؛ لأنّني أخشى أن تصبح الحكاية يومًا مجرّد تاريخٍ واسم، بينما كنتَ في الحقيقة حياةً كاملةً لا أعرف كيف أضعها بين الصفحات.

لم أكن أريد أن أرثي رجلًا غاب فحسب... كنتُ أريد أن يعرف العالم أنّه كان أبي.

لم أكن أعرف أبي من خلال الحكايات وحدها، فقد كان لي أبٌ عشتُ معه سنواتٍ من عمري، لكنّني لم أكن أعلم أنّ تلك السنوات ستصبح يومًا كلّ ما أعود إليه حين أشتاق.

كنتُ صغيرةً بما يكفي لأظنّ أنّ الآباء لا يغيبون، وأنّ وجودهم أمرٌ لا يحتاج إلى تفكير، كأنّهم جزءٌ ثابتٌ من العالم، لا يمكن للأيام أن تنتزعه من مكانه.

لم أكن أفهم معنى أن يكون للإنسان أبٌ، ثم يصبح عليه أن يتعلّم الحياة من دونه. لم أكن أعرف أنّني سأكبر وأفتّش عن ملامحك في الصور، وأحاول أن أستعيد صوتك من أعماق الذاكرة، خشية أن تخونني التفاصيل يومًا.

وحين أفكّر فيك، لا أرى النهاية وحدها؛ أحاول أن أعود إلى ما قبلها، إلى الرجل الذي كان أبي، لا إلى الحكاية التي انتهت بغيابه.

أريد أن أعرفك كما كنت، بعيدًا عن جدران السجن، وبعيدًا عن الوجع الذي لحق بك. أريد أن أتذكّرك أبًا، لا أن تختصر ذاكرتي بكلمة معتقل، أو باسم مكانٍ صار جزءًا من قصتي دون أن أختاره.

فأنت أكبر من المكان الذي احتجزك، وأكبر من الألم الذي مررت به، وأكبر من النهاية التي لم تمنحني حتى فرصة وداعك.

وربّما لهذا أعود إلى ذكرياتك كلّما كتبت؛ لأنّني أخشى أن تصبح الحكاية يومًا مجرّد تاريخٍ واسم، بينما كنتَ في الحقيقة حياةً كاملةً لا أعرف كيف أضعها بين الصفحات.

لم أكن أريد أن أرثي رجلًا غاب فحسب... كنتُ أريد أن يعرف العالم أنّه كان أبي.

ثمّة فرقٌ كبير بين أن تعرف أنّ شخصًا ما رحل، وبين أن تعرف كيف أصبح رحيله جزءًا من حياتك.

أنا لم أفقد أبي في يومٍ واحدٍ فقط؛ فقدتُ معه أشياء كثيرةً اكتشفتُ قيمتها مع مرور السنوات. فقدتُ فرصة أن أكبر أمام عينيه، وأن أعود إليه كلّما أثقلتني الحياة، وأن أسمع منه إجابةً عن أسئلةٍ لم أكن أعرف يومًا أنّني سأحتاج إلى طرحها.

لكنّ أكثر ما حيّرني أنّني كلّما حاولتُ الاقتراب من حكايتك، وجدتُ أمامي بابًا آخر من الأسئلة.

كيف كانت أيّامك خلف تلك الجدران؟

بماذا كنتَ تفكّر حين يطول الليل؟

هل مرّ اسمنا في خاطرك كما يمرّ اسمك في دعائنا؟

وهل كنتَ تتخيّل أنّ ابنتك ستكبر يومًا وتكتب عنك، وتحاول أن تجمع من بقايا الحكاية ما يكفي لتخبر العالم مَن كنت؟

لا أملك إجاباتٍ عن كلّ ذلك، ولن أدّعي أنّني أعرف ما لم أكن شاهدةً عليه. لكنّني أعرف أنّك كنتَ إنسانًا له قلبٌ وأحلامٌ وحياة، قبل أن تصبح قصتك مرتبطةً باسم صيدنايا.

وأعرف أنّ خلف كلّ اسمٍ في تلك الحكاية حياةً لا يجوز اختصارها في جملة.

أمّا أنا، فكلّ ما أستطيع فعله الآن هو أن أكتب...

لعلّ الكتابة تنصف بعض ما عجزتُ عن قوله، ولعلّ هذه الصفحات تمنح حكايتك مساحةً أوسع من الصمت.

فليس كلّ ما لم نعرفه لم يحدث، وليس كلّ ما لم نستطع روايته يستحقّ أن يُنسى.

لم أكن أعلم أنّني سأحمل يومًا حكايةً أكبر من قدرتي على الكلام، وأنّ اسم أبي سيصبح بدايةً لكلّ سؤالٍ أكتبه، ونهايةً لكلّ محاولةٍ مني أن أشرح ما أشعر به.

لكنّني كلّما عدتُ بذاكرتي إلى الوراء، أدركتُ أنّ حكايتك لم تبدأ من السجن، ولم تكن نهايتك هي كلّ ما يستحقّ أن يُروى عنك.

كان لك عالمٌ قبل صيدنايا، وكانت لك حياةٌ وأحلامٌ وأيامٌ لا أعرف عنها الكثير، لكنّني أتمنّى لو أنّني أستطيع العودة إليها، ولو للحظةٍ واحدة، لأراك كما كنتَ، بعيدًا عن كلّ ما حدث.

أريد أن أتذكّر أنّك كنتَ أبًا قبل أن تصبح غائبًا، وأنّ لك قلبًا أحبّ، ووجهًا ضحك، وأيّامًا عشتها بين أهلك وأحبابك.

لا أريد أن تختصر ذاكرتي بكلمة سجن، ولا أن يكون اسم صيدنايا آخر ما يعرفه الناس عنك. فأنت لستَ الجدران التي احتجزتك، ولستَ الألم الذي مررتَ به، أنت إنسانٌ كانت له حكاية، وابنةٌ ما زالت تحاول أن تكتبها بما يليق بك.

وربّما لهذا بدأتُ هذه الرواية؛ لأعيد إليك في الكلمات شيئًا من الحياة التي لا أريد أن يبتلعها النسيان.

فأنا لا أريد للعالم أن يتذكّر كيف غبتَ فقط، بل أريده أن يعرف أنّك كنتَ هنا يومًا، وأنّ لك ابنةً ما زالت تفتخر بأنّها ابنتك.

ومع أنّ الحكاية بدأت بغيابٍ لم أكن مستعدّةً له، فإنّني لا أريد أن أكتب عن الحزن وحده؛ فالحياة لم تكن يومًا لونًا واحدًا، حتى حين يخيّل إلينا أنّ العتمة غطّت كلّ شيء.

ما زالت هناك صباحاتٌ تستحقّ أن نبتسم لها، وأشياء صغيرة قادرةٌ على أن تعيد إلى قلوبنا شيئًا من الفرح؛ ضحكةٌ تأتي دون موعد، كلمةٌ طيّبة من شخصٍ لا يعرف كم كنّا بحاجة إليها، وسماءٌ صافية تجعلنا نشعر أنّ الغد قد يحمل لنا ما هو أجمل.

تعلّمتُ أنّ الإنسان يستطيع أن يحمل في قلبه حزنًا عميقًا، ومع ذلك يفرح، ويحبّ، ويحلم، ويبدأ من جديد. ليس لأنّه نسي ما فقده، بل لأنّ الحياة التي بقيت له تستحقّ أن يعيشها. وأنا، رغم كلّ ما مررتُ به، ما زلتُ أملك أحلامًا كثيرة. أريد أن أكبر، وأن أكتب، وأن أرى اسمي على غلاف كتاب، وأن أصل يومًا إلى الصفحة الأخيرة من روايتي وأنا فخورةٌ بأنّني لم أتخلَّ عن الحلم.

وربّما حين أمسك كتابي بين يديّ، سأرفع عيني إلى السماء وأقول:

يا أبي، هذه الصفحات التي كتبتها بقلبي، أتمنّى لو كنتَ هنا لترى ابنتك وهي تحقّق حلمًا صغيرًا من أحلامها.

فأنا لم أعد أريد أن تكون حكايتي مجرّد قصة فتاةٍ فقدت أباها؛ أريدها أن تكون أيضًا قصة فتاةٍ تعلّمت أن تنهض، وأن تحبّ الحياة، وأن تصنع من الكلمات طريقًا نحو الضوء.

فليس الوفاء لمن نحبّ أن نبقى حزانى إلى الأبد، بل أن نحمل حبّهم معنا، ونواصل الحياة بقلوبٍ لم تنسَ.

أحيانًا أتخيّل كيف كانت ستبدو حياتي لو أنّك ما زلتَ هنا.

أتخيّل أنّني أعود إليك يومًا ومعي كتابٌ يحمل اسمي، أضعه بين يديك وأراقب ملامحك، وأنت تتصفّحه صفحةً صفحة. أتخيّل أنّني أخبرك عن الليالي التي سهرتُ فيها أكتب، وعن الكلمات التي محوتها ثم أعدتُ كتابتها، وعن كلّ مرةٍ شعرتُ فيها أنّني لن أستطيع إكمال الطريق، ثم أكملت.

ربّما كنتَ ستبتسم، وربّما كنتَ ستقول لي إنّ أمامي الكثير لأتعلّمه، لكنّني كنتُ سأكون سعيدةً لمجرّد أنّك رأيتَ محاولتي الأولى.

أتعرف يا أبي؟ لقد أصبحتُ أحبّ الورق بطريقةٍ مختلفة؛ ففيه أستطيع أن أقول ما لا أستطيع قوله، وأن أحفظ ما أخشى أن تنساه الذاكرة. وكلّما كتبتُ سطرًا جديدًا، شعرتُ أنّني أقترب خطوةً من حلمٍ طالما تمنّيتُ أن أحقّقه.

لا أعرف كم صفحةً سأكتب، ولا إلى أين ستأخذني هذه الحكاية، لكنّني أعرف أنّني أريد أن أصل إلى نهايتها وأنا أكثر تصالحًا مع نفسي، وأكثر إيمانًا بأنّ القادم قد يحمل لي أيامًا جميلة.

وربّما لا أستطيع أن أشاركك فرحتي حين يتحقّق حلمي، لكنّ اسمك سيكون حاضرًا في اللحظة، كما هو حاضرٌ الآن بين هذه السطور.

إلى أبي الذي لم يشهد بداية حلمي ككاتبة؛ أتمنّى أن تكون كلماتي أجمل ما أستطيع أن أهديه لذكراك.

فالحكاية التي بدأت بعبارة «لم يمت» لم تعد تبحث عن نهايةٍ للحزن، بل أصبحت تبحث عن معنى الحياة بعد كلّ ما حدث.

قبل أن يصبح أبي ذكرى، كان حياةً كاملة.
كان له صباحاته وأحلامه، وأحاديثه التي لا أعرف كم منها بقي في ذاكرة الآخرين، وكان له مكانٌ في هذا العالم لم أكن أتخيّل يومًا أنّه سيصبح فارغًا إلى هذا الحدّ.

أحيانًا أفكّر أنّني تأخّرت كثيرًا في معرفة بعض الأشياء؛ فقد كنتُ صغيرةً، ولم أكن أعرف أنّ الأيام العادية التي نعيشها مع من نحبّ قد تصبح يومًا أثمن ما نملك. لم أكن أحفظ كلّ التفاصيل، ولم أكن أعلم أنّني سأحتاج إليها لاحقًا، حين يصبح الرجوع مستحيلًا.

لكنّني لا أريد أن ألوم تلك الطفلة؛ لم يكن مطلوبًا منها أن تحفظ كلّ شيء، ولا أن تتوقّع الغياب، ولا أن تعرف أنّ بعض اللحظات لن تتكرّر.

كان يكفيها أن تكون ابنةً تحبّ أباها، وأن تعيش أيامها دون أن تخاف من الغد.

واليوم، وأنا أكتب، أحاول أن أقترب من تلك الأيام برفق. لا أريد أن أملأ الفراغ بحكاياتٍ لم تحدث، ولا أن أخترع تفاصيل لا أعرفها. أريد أن أترك للحقيقة مكانها، وللذكريات جمالها، وللحبّ حقّه في أن يُروى.

فربّما لا أملك كلّ صفحات حكايتك يا أبي، لكنّني أملك سببًا يجعلني أواصل كتابتها.

لقد كنتَ أبي قبل أن تصبح قصتي، وستبقى أبي حتى آخر كلمةٍ أكتبها.

ما زلتُ أحتفظ في داخلي بطفلةٍ صغيرة، لا تعرف الكثير عن الحياة، لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا جيدًا: أنّ لها أبًا تحبّه.

تلك الطفلة لم تكن تعرف معنى الفقد، ولم تكن تفكّر في الأيام القادمة، ولم يخطر ببالها أنّها ستكبر يومًا وتبحث عن أبيها بين الصور والكلمات والدعوات.

كانت تظنّ أنّ العمر طويل، وأنّ أمامها وقتًا كافيًا لتكبر، وتحكي، وتسأل، وتعيش معه تفاصيل كثيرة لم تكن تعرف أنّها قد لا تأتي أبدًا.

وأحيانًا أتمنّى لو أستطيع العودة إليها، لا لأخبرها بما سيحدث، ولا لأسرق منها براءة طفولتها بالخوف، بل لأقول لها أن تستمتع بكلّ لحظة، وأن تعرف أنّ الأيام البسيطة التي تعيشها الآن قد تصبح يومًا كنزًا في قلبها.

يا ليتنا نعرف قيمة بعض اللحظات
قبل أن تتحوّل إلى ذكريات.
واليوم، كلّما كتبتُ عنك، أشعر أنّني
أجلس إلى جانب تلك الطفلة،
وأحاول أن أطمئنها بأنّ الحبّ الذي
عرفته لم يذهب هباءً، وأنّ أباها
سيبقى حاضرًا في الحكاية، مهما تغيّرت
السنوات.
كبرتُ يا أبي، لكنّ في داخلي طفلةً
كلّما ذُكرتَ، عادت تبحث عنك كما لو
أنّ الغياب حدث بالأمس.

في البداية، ظننتُ أنّ كتابة هذه الرواية ستكون مجرّد محاولةٍ لترتيب ذكرياتي، لكنّني اكتشفتُ أنّني أمام حكايةٍ تحتاج إلى أكثر من ذاكرة.

كلّما كتبتُ سطرًا، وجدتُ نفسي أمام سؤالٍ جديد: كيف أروي حياة إنسانٍ لم أكن شاهدةً على كلّ تفاصيلها؟ كيف أكتب عن سنواتٍ لا أعرف ما الذي حملته، وعن أيامٍ مرّت بعيدًا عن عيني؟

لم أرد أن أملأ الفراغ بالتخيّل، ولا أن أضيف إلى حكايتك ما لا أعرفه. فالحقيقة، مهما كانت موجعة، تستحقّ أن تُروى كما هي.

لهذا قرّرتُ أن أبحث عنك في الأماكن التي بقي فيها أثرك، في الصور، وفيما يحتفظ به من عرفوك، وفي كلّ كلمةٍ صادقة قد تقرّبني من الرجل الذي كنتَه.

لم أكن أبحث عن حكايةٍ مثالية، ولا عن كلماتٍ تجعل الجميع يتأثّرون؛ كنتُ أبحث عن أبي.

وفجأةً أدركتُ أنّ أمامي طريقًا طويلًا، وأنّ هذه الصفحات ليست سوى بدايته.

فما زال في الحكاية الكثير الذي لم يُكتب بعد.

كلّما التقيتُ بأحد أصدقاء أبي، شعرتُ أنّني ألتقي بجزءٍ صغيرٍ منه.

أنظر إلى وجوههم، فأحاول أن أتخيّل أبي بينهم، وأتساءل عمّا إذا كانوا يتذكّرونه بالطريقة التي أتذكّره بها. لكنّ عينيّ كانتا تسبقان كلماتي دائمًا، وكأنّهما تعرفان أنّ الحديث عنه لن يمرّ دون أن يترك أثره في قلبي.

ذات مرّة، سألني أحدهم: «أنتِ ابنة مَن؟»

أجبته بفخر: «أنا ابنة ذلك البطل».

تأمّلني قليلًا، ثم قال بدهشةٍ وحنان: «ما شاء الله، لقد كبرتِ!»

كانت جملةً بسيطة، لكنّها حملت إليّ سنواتٍ كاملة. كأنّه لم يرَ أمامه فتاةً كبرت فحسب، بل رأى ابنة صديقه التي كانت صغيرةً يومًا، ثم عادت إليه وقد تغيّرت ملامحها، بينما بقي اسم أبيها كما هو.

وكان بين أصدقاء أبي رجلٌ رحل هو الآخر، وكان من أصدقائه المقرّبين. عندها أدركتُ أنّ الغياب لا يترك أثره في العائلة وحدها؛ فهناك أصدقاء يحملون ذكرياتٍ لا يعرفها الأبناء، وحكاياتٍ لم تصلنا، وأسماءٌ كلّما ذُكرت أعادت إلينا شيئًا من أصحابها.

ومنذ ذلك الوقت، صرتُ ألاحظ شيئًا في نفسي؛ كلّما رأيتُ أبًا مع ابنته، ارتجف جفني، وسبقت دموعي ابتسامتي.

لم أكن أحسد أحدًا على وجود أبيه، كنتُ فقط أتمنّى لو أنّ لي نصيبًا من تلك اللحظات العادية التي تبدو صغيرةً في عيون أصحابها، بينما تبدو لي أمنيةً بعيدة.

أحيانًا، لا نحتاج إلى أن يخبرنا أحدٌ عن الراحلين؛ تكفي نظرةٌ في وجه صديقٍ قديم، لنكتشف أنّ لهم حكاياتٍ ما زالت تعيش في قلوب الآخرين.

لم أكن أعرف أنّ لأبي هذا العدد من الحكايات التي لم أعشها، ولا أنّ اسمه ما زال حاضرًا في أحاديث أشخاصٍ لم ألتقِ بهم إلا بعد غيابه.

كان كلّ صديقٍ يذكره يضيف إلى صورته في ذاكرتي شيئًا جديدًا؛ ابتسامةً هنا، موقفًا هناك، أو كلمةً يقولها وهو يستعيد أيامًا جمعتهما.

كنتُ أستمع باهتمام، وأحاول ألّا تفوتني كلمة، كأنّني أجمع قطعًا صغيرةً من صورةٍ أريد أن تكتمل.

وأحيانًا، كان أحدهم يبدأ حديثه بعبارة: «بتعرفي، أبوك كان...» ثم يصمت قليلًا، فأشعر أنّ خلف صمته حكايةً طويلة.

كنتُ أتمنّى لو أستطيع أن أوقف الوقت عند تلك اللحظات، وأسألهم عن كلّ شيء؛ عن ضحكته، عن طباعه، عن أحلامه، وعن المواقف التي جعلتهم يحبّونه إلى هذا الحدّ.

لكنّني أدركتُ أنّ لكلّ إنسانٍ ذاكرةً تخصّه، وأنّ أبي لم يكن أبي وحدي؛ كان صديقًا لأحدهم، وأخًا لآخر، ورفيقًا ترك في حياة كثيرين أثرًا لا أعرف حجمه بعد.

ومن هنا بدأت أفهم شيئًا لم أفكّر فيه من قبل:

أنا لا أكتب حكاية أبي وحدي، بل أحاول أن أجمع حكاية إنسانٍ عاش في قلوب أشخاصٍ كثيرين، وكلّ واحدٍ منهم يحمل منه جزءًا لا يشبه الآخر.

حكاية لم تنتهِ

لم يكن أبي يعلم أنّ أبناءه سيكبرون يومًا وهم يتمنّون لو أنّه كان بينهم؛ ليشهد خطواتهم الأولى، ويسمع أخبارهم الصغيرة، ويرى كيف أصبحت الحياة من بعده.

ترك خلفه سبعة أبناء، لم يحمل كلّ واحدٍ منهم منه العمر نفسه، ولا الذكريات نفسها. فمنّا من عرف صوته وملامحه، ومنّا من كانت حصّته منه حكاياتٍ نسمعها، وصورًا نتأمّلها، وأسئلةً لا نجد لها إجابة.

هناك أختٌ لي جاءت إلى الدنيا بعد رحيله، فلم تعرف أباها إلا من خلالنا. وهناك إخوةٌ كانوا صغارًا جدًا حين فقدوه، وكبروا وهم يحاولون أن يتخيّلوا كيف كان سيكون شكل حياتهم لو بقي بينهم.

ومع مرور السنوات، كبرت العائلة أيضًا؛ تزوّجت أختي، وجاء خلودي، أول أحفاد أبي، وفي ملامحه شيءٌ يجعلنا نتذكّر جدّه. واليوم ننتظر مولودًا جديدًا سيحمل اسم أبي، ليعود اسمه ويُنادَى في بيتنا من جديد.

كلّ واحدٍ منّا يحمل من أبي حكاية مختلفة، وربما لهذا لن أستطيع أن أكتب حكايته من ذاكرتي وحدها؛ فهناك أجزاءٌ منها تسكن إخوتي، وأجزاءٌ أخرى تنتظر أن ترويها الأيام القادمة.

ما لا تقوله الصور

أحيانًا أتأمّل صور أبي، وأفكّر في الأشياء التي لا تستطيع الصور أن تخبرنا عنها؛ كيف كان يتصرّف في يومه العادي؟ ما الذي كان يضحكه؟ وكيف كانت تبدو ملامحه حين يجتمع أبناؤه حوله؟

أعرف أنّ لكلّ واحدٍ من إخوتي صورة مختلفة عنه في ذاكرته، وأنّ بعضهم يملك ذكرياتٍ لا أملكها، وبعضهم يتمنّى لو امتلك ذكرى واحدة فقط.

ولهذا بدأت أفهم أنّ كتابة حكاية أبي لا تعني أن أكتب ما أعرفه وحده، بل أن أقترب من حكايات الذين عرفوه، وأن أترك لكلّ ذكرى مكانها، مهما بدت صغيرة.

فربما تختبئ في تفصيلٍ عابر حكايةٌ كاملة، وربما تكون كلمةٌ واحدة كافية لتُعرّفنا إلى جانبٍ من أبي لم نكن نعرفه.

وهذه المرّة، لن أبحث عن أبي في الصور وحدها... سأبحث عنه في حكايات أبنائه.

اسمٌ لم يغب

للأسماء حكاياتٌ لا يعرفها الغرباء؛ بعضها نختاره لأنّه جميل، وبعضها نحمله لأنّه جزءٌ من تاريخنا.

واسم أبي لم يعد بالنسبة إليّ مجرّد اسمٍ أنطقه حين أذكره، بل أصبح حكايةً تتنقّل بين أفراد عائلتنا. واليوم، حين ننتظر طفلًا سيحمل اسمه، أشعر أنّ هناك فصلًا جديدًا يُكتب في حكاية عائلتنا، فصلًا لم يكن أبي حاضرًا ليقرأه، لكنّ اسمه سيكون في أوّل سطوره.

أتساءل أحيانًا: كيف سيكبر هذا الطفل وهو يعرف أنّ الاسم الذي يحمله كان لرجلٍ أحبّه أبناؤه إلى هذا الحد؟ ماذا سنخبره عنه حين يسأل؟ وأيّ حكاية سنختار لتكون أول ما يعرفه عن جدّه؟

ربما لن تكفيه الصور، ولن تختصره الكلمات، لكنّنا سنحكي له عنه كما نعرفه، وسنترك له أن يكتشف حكايته بنفسه.

فبعض الأسماء لا تُمنح للمولود فقط... بل تُسلَّم إليه معها حكاية عائلة كاملة.

جدٌّ لم يلتقه

سيكبر خالودي يومًا، وربما يسأل عن الرجل الذي يسمع اسمه كثيرًا في أحاديث العائلة؛ عن جدّه الذي لم تتح له فرصة لقائه، ولم يعرف كيف كانت نبرة صوته، ولا كيف كان ينادي أبناءه.

وسأحبّ أن أحكي له عنه، لا كأنني أروي له حكاية رجلٍ من زمنٍ بعيد، بل كأنني أعرّفه إلى جزءٍ من جذوره. سأخبره أنّه ينتمي إلى عائلةٍ كان لها أبٌ ترك أثرًا لم تمحُه السنوات، وأنّ اسمه ليس مجرّد اسمٍ يتكرّر في البيت.

وربما حين يكبر، سيجد في ملامحه شيئًا يشبه جدّه، أو في طباعه تفصيلًا يذكّرنا به. عندها لن تكون الحكاية مجرّد صورٍ قديمة، بل شيئًا نراه أمامنا يكبر.

لطالما فكّرت أنّ أصعب ما في الحكايات التي لا تكتمل، أنّ أبطالها لا يستطيعون لقاء بعضهم.

لكنّنا نستطيع أن نحفظ الحكاية، ونرويها لمن جاء بعدنا، حتى لا يصبح أصحابها غرباء عنهم.

فأنا لا أريد لأحفاد أبي أن يعرفوا اسمه فقط، أريدهم أن يعرفوا الحكاية التي جعلت اسمه عزيزًا علينا.

من حملوا مكانًا في الحكاية

يا ذا القامة البهيّة، ويا صاحب اللحية التي أراها فأشعر بالفخر... لا أعرف إن كنتَ تدرك كم تعني لي، وكم من الأشياء التي كنت أحتاج أن أجدها بجانب أبي وجدتها فيك.

لم تكن مجرّد أخٍ أكبر؛ كنتَ سندًا حين احتجت إلى السند، ووجهًا أطمئنّ إليه حين تثقل الأيام. حاولتَ أن تكون لنا عونًا في أشياء كثيرة، وأن تسدّ بعض الفراغ الذي تركه أبي، فكبرتَ في عيني أكثر من مجرّد أخ. وإن كان أبي لا يُعوَّض، فأنت من الأشخاص الذين جعلوا الحياة أهون علينا بعده.

ولم تكن وحدك في هذه الحكاية؛ كان هناك عمّي، ذلك الذي لم يتركنا حين احتجنا إليه. من بين أعمامي، كان هو من حمل مسؤوليتنا بقلبه، وفتح لنا بابه، وبقي قريبًا منّا، وكأنّه يعرف أنّ بعض الغيابات تحتاج إلى قلوبٍ لا تتخلّى.

وله هو أيضًا عائلته وأبناؤه الأربعة؛ ثلاث بناتٍ وابن، ومع ذلك لم يجعل انشغاله بحياته سببًا ليبتعد عنّا.

ربما لا تُقاس المحبة بالكلمات التي نقولها، بل بالمواقف التي تبقى في الذاكرة. ولهذا، وأنا أكتب عن أبي، لا أستطيع أن أتجاوز الذين وقفوا إلى جانب أبنائه بعد رحيله.

فحكاية أبي لا تتكوّن من ذكراه وحدها، بل من كلّ يدٍ امتدّت إلينا، وكلّ قلبٍ اختار ألّا يتركنا وحدنا.

تفاصيل من عائلتي

كبرنا في بيتٍ لم تكن حكايته تشبه حكايات البيوت الأخرى تمامًا؛ لكلّ واحدٍ منّا عمرٌ مختلف، وطباعٌ تميّزه، وطريقةٌ خاصة في رؤية العالم.

ومع مرور السنوات، بدأت ألاحظ أنّ العائلة ليست مجرّد أشخاص تجمعهم صلة القرابة، بل تفاصيل صغيرة تصنع بينهم عالمًا لا يعرفه سواهم؛ كلمةٌ تتكرّر، وضحكةٌ يعرف أصحابها سببها، وموقفٌ قديم يعود ذكره كلّما اجتمعنا.

أحيانًا أتأمّل إخوتي وأفكّر كم تغيّرنا. أولئك الصغار الذين لم يكونوا يدركون الكثير، أصبح لكلّ واحدٍ منهم طريقه وأحلامه وشخصيته.

لم نكبر بالطريقة نفسها، ولم نعش التجربة ذاتها، لكنّنا ننتمي إلى الحكاية نفسها.

وأنا، حين أكتب عنهم، لا أريد أن أجعلهم مجرّد أسماءٍ في رواية أبي؛ أريد أن أمنح كلّ واحدٍ منهم مساحةً تشبهه، لأنّ لكلّ إنسانٍ في هذه العائلة حكايةً تستحق أن تُروى.

للذين كانوا لنا وطنًا

ليس كلُّ أبٍ يُنجب أبناءه ثم تنتهي مهمّته، فبعض الرجال يتركون في أبنائهم من المعاني ما يجعلهم يبحثون عن الأمان في وجوهٍ أخرى تشبههم.

يا ذا القامة البهيّة، ويا صاحب اللحية التي أعتزّ بها، كم تمنّيت لو أنّ أبي يراك كما أراك، وكم أودّ لو أخبره أنّك كنتَ أكثر من أخٍ في حياتي. كنتَ الرجل الذي أستند إليه حين تضيق بي الدنيا، والذي وجدتُ في حضوره شيئًا من الطمأنينة التي افتقدتها. لم تأخذ مكان أبي، فمكانه لا يملؤه أحد، لكنّك جعلتني أعرف أنّ الله قد يرسل لنا بعد الفقد قلوبًا تحاول أن تحمينا من قسوة الحياة.

ولعمّي حكايةٌ أخرى من الوفاء؛ رجلٌ لم يجعل القرابة مجرّد اسم، بل جعلها موقفًا. كان بإمكانه أن ينشغل بعائلته وأبنائه الأربعة، لكنه لم ينسَ أبناء أخيه، ولم يتركنا نشعر أنّنا وحدنا في مواجهة الأيام.

ولعلّ أجمل ما يتركه الإنسان خلفه ليس المال ولا الأشياء، بل أشخاصًا يمدّون أيديهم إلى من أحبّهم، دون أن ينتظروا مقابلًا.

وكتبتُ يومًا:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواهُ منْ همِّ الحياةِ وخلّفاهُ ذليلًا

إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقى لهُ أمًّا تخلّت أو أبًا مشغولًا.

لكنّني تعلّمت أنّ في الدنيا قلوبًا لا تحمل اسم الأب، لكنها تعرف معنى المسؤولية، وفي الرجال من يجعلون من الوفاء عهدًا لا يتغيّر.

فإلى أخي وعمّي، ولكلّ من كان عونًا لعائلةٍ مرّت بما مرّت به: قد لا تكفي الكلمات لردّ الجميل، لكنّ بعض المواقف تستحق أن تُخلَّد في كتاب.

أثرٌ لا تشبهه الكلمات

ثمّة أشياء لا تُقاس بحجمها، بل بالمكان الذي تتركه في القلب؛ فقد تكون كلمةٌ واحدة سببًا في طمأنينة إنسان، وقد يكون موقفٌ بسيط ذكرى ترافقه طوال عمره.

كبرتُ وأنا أكتشف أنّ العائلة ليست دائمًا حكايةً عن أشخاصٍ يجتمعون تحت سقفٍ واحد، بل هي حكاية مواقف؛ من بقي حين ابتعد الآخرون، ومن تذكّرنا في وقتٍ لم نكن نعرف كيف نطلب فيه المساعدة، ومن منحنا شعورًا بأنّ لنا مكانًا لا نخشى فقدانه.

ولعلّ أجمل ما في الوفاء أنّ صاحبه لا يحتاج إلى إعلان محبّته في كلّ مرة؛ تكفي أفعاله لتقول ما تعجز عنه الكلمات.

بعضُ القلوبِ إذا وقفتْ بجانبنا
صارتْ لنا وطنًا، وإن ضاقتْ بنا الأوطانُ.

لهذا أكتب عنهم؛ لا لأحصي ما فعلوه، بل لأنّ في ذاكرتي أشخاصًا يستحقّون أن تُروى حكاياتهم، ولأنّ الجميل لا ينبغي أن يمرّ بصمت، مهما اعتدنا وجوده.

فليس كلّ من صنع فرقًا في حياتنا يعرف أنّه فعل ذلك... وربما هذه الصفحات هي طريقتي لأقول لهم: لقد رأيتُ ما فعلتم، ولم أنسَ.

يمضي الرجالُ وتبقى في ملامحِهمْ
أشياءُ لا تمحوها الأعوامُ والنِّسَبُ.

ولستُ أريد أن أحمّل إخوتي مسؤولية أن يشبهوا أبي، ولا أن أطلب من أحدٍ منهم أن يكون نسخةً عنه؛ لكلّ واحدٍ منا حقّه في أن يكون نفسه، وأن يرسم طريقه كما يشاء.

لكنّني أؤمن أنّ أجمل ما يمكن أن نورّثه لمن نحبّ هو أثرٌ طيّب، يجعل الآخرين يذكروننا بالخير حتى حين لا نكون في المكان.

وربما، حين ينتهي هذا الكتاب، سأكتشف أنّني لم أكن أكتب عن رجلٍ غاب فحسب، بل عن عائلةٍ ما زالت تكتب حكايته بطريقتها.

نحن امتداد الحكاية

يقولون إنّ الإنسان يعيش عمرًا واحدًا، لكنني أظنّ أنّ بعض الناس يتركون خلفهم أعمارًا كثيرة؛ يعيشون في أبنائهم، وفي الكلمات التي يردّدونها، وفي العادات التي تنتقل دون أن نعرف من أين بدأت.

كم من صفةٍ نحملها ولا نعرف أنّها تشبه آباءنا؟ وكم من حركةٍ نقوم بها، أو كلمةٍ نقولها، تكون امتدادًا لشخصٍ لم يعد بيننا؟

ربما لهذا أحبّ أن أتأمّل إخوتي؛ أبحث في تفاصيلهم عن أشياء لا تُرى في الصور. أحيانًا يخطر لي أنّ أبي لم يكن مجرّد فصلٍ مضى من حياتنا، بل كان بداية سطورٍ ما زلنا نكتبها حتى اليوم.

حين تسأل الذاكرة

هل جرّبتَ يومًا أن تشتاق إلى حكايةٍ لم تعشها كاملة؟

أن تقف أمام صورةٍ قديمة، وتتمنّى لو أنّك تستطيع الدخول إليها، لا لتغيّر شيئًا، بل لتعرف ما الذي حدث قبل أن تُلتقط، وما الذي قيل بعدها، ومن كان يضحك، ومن كان ينظر إلى الآخرين بصمت؟

هذا ما يحدث لي كلّما تأمّلت صور أبي. لا أرى فيها وجهًا أعرفه فحسب، بل أرى حياةً كاملةً لم أتمكّن من معرفتها كما تمنّيت. حياةً كان فيها أبي ابنًا وأخًا وصديقًا وزوجًا وأبًا، وكان لكلّ شخصٍ عرفه وجهٌ آخر من حكايته.

وأدركتُ أنّ الإنسان لا يكون شخصًا واحدًا في ذاكرة الجميع؛ فقد يكون لأحدهم صديقًا لا يُنسى، ولآخر أخًا عزيزًا، ولأبنائه أبًا لا يشبهه أحد.

لهذا قرّرت ألّا أكتفي بما أعرفه عنه، وأن أترك للحكايات الأخرى أن تصل إليّ. فربما يحمل شخصٌ ما ذكرى صغيرةً عنه، لكنها بالنسبة إليّ نافذةٌ على عمرٍ كامل.

وما كلُّ ما غابَ عن العينِ انتهى،

فبعضُ الحكاياتِ تبدأ حين نبحثُ عنها.

ومن هنا بدأت أفهم أنّني كلّما اقتربتُ من حكاية أبي، اكتشفتُ أنّ وراءها حكاياتٍ أخرى... وأنّ أكثر ما أجهله عنه قد يكون أجمل ما سأكتبه يومًا.

هنا تنتهي الحكاية... ولا ينتهي الأثر.

وهكذا تنتهي صفحات الحكاية، لكنّ الحكاية نفسها لم تنتهِ يومًا.

بدأت هذه الكلمات بغيابٍ لم أفهمه، وبقلبٍ صغيرٍ لم يكن يعرف كيف يستوعب أن بعض الوجوه التي اعتدنا وجودها لن تعود كما كانت. كبرتُ، وكبر معي السؤال، وتغيّرت أشياء كثيرة، إلا ذلك المكان الذي بقي محفوظًا له في داخلي.

كتبتُ عن الفقد، عن الانتظار، عن الذكريات التي لا تشيخ، عن الأيام التي مرّت ثقيلة، وعن طفلةٍ حاولت أن تفهم لماذا عليها أن تكبر وفي قلبها كل هذا الغياب.

كتبتُ عن سجنٍ أخذ منّا أكثر مما نحتمل، وعن أبٍ لم يكن غيابه عاديًا، وعن عائلةٍ تعلّمت أن تكمل الطريق رغم أن شيئًا أساسيًا كان ينقصها.

كتبتُ عن إخوةٍ كبروا على حكاياته، وعن وجوهٍ تشبهه، وعن أحفادٍ سيعرفونه من خلال الصور والروايات، وعن اسمٍ سيبقى حاضرًا مهما مرّت السنوات.

وإن سألني أحدهم يومًا: هل انتهت الحكاية؟

سأقول: انتهت صفحاتها، أما هو فلم ينتهِ منّا.

فبعض الناس لا تقيسهم السنوات، ولا تُنهيهم المسافات، ولا يستطيع الغياب أن يمحو أثرهم. يبقون في الدعاء، وفي التفاصيل الصغيرة، وفي المواقف التي نتمنى لو كانوا معنا فيها، وفي كل مرة نحتاج فيها إلى كلمةٍ منهم فلا نجد سوى الذكرى.

إلى أبي بلال... لم تكن هذه الصفحات كافية لأحكي عنك، ولم تكن الكلمات أوسع من وجعي، لكنني حاولت أن أجمع شيئًا منك بين دفّتي كتاب، لعلّ من يقرأه يعرف أنك كنت إنسانًا، وأبًا، وحكايةً لا تستحق النسيان.

سامحني إن خانتني الكلمات، وإن قصّرت الحروف عن وصف مكانتك، فما عجزتُ عن كتابته كان أكبر بكثير مما استطعت قوله.

ولكل من قرأ هذه الحكاية حتى آخر سطر...

تذكّروا أن خلف كل إنسانٍ حكاية لا تعرفون تفاصيلها، وأن بعض الغائبين يتركون في أرواحنا حضورًا لا يغيب، وأن المحبة الصادقة لا تنتهي بانتهاء العمر.

أُغلقت الصفحات، وبقي الأثر.

لم يمت...

بل بقي فينا، ما بقي في القلب نبض، وفي الدعاء اسم، وفي الذاكرة حكاية.

تم بحمد الله

لَم يَكُن مُجرَّد أَبٍ، كَانَ الأَمَانَ الَّذِي انْكَسَر بِرَحِيلِه...
هُنَا بِقَايَا حِكَايةٍ لَم تَنْتَهِ، وَدَموعٌ تُحَوِّلَتْ إِلَى حُروفٍ،
تُرْوى لِمَنْ رَحَلَ وَبَقِيّ فِي الْقَلْبِ حَيًّا لَا يَمُوتُ.

